**- مدخل تمهيدي: مصطلحات ومفاهيم**

منذ أن أدرك الإنسان ذاته ووجوده ضمن هذا الكون المعقد حاول أن يتعرف على أسرار كل هذه العناصر (الذات – الوجود – العلاقة بينهما: اللغة)، باحثا عن سبيل الوعي والإدراك والفهم والتفكير والتواصل والعيش، وخلال رحلته المعرفية هذه توصل إلى مركزية "اللغة" ودورها الفعال في هذه الحلقة، حلقة فهم الذات والوجود واللغة في حد ذاتها، وهذا يعني أن اللغة موضوع وأداة (وسيلة) وغاية، اهتم بها الإنسان منذ القديم.

والنتيجة أن توصل إلى ضرورة وحتمية فهم هذا اللغز الكامن من اللغة التي نفكر بها وفيها، ولا سبيل إلى ذلك دون التعاطي مع اللغة إبداعا وفهما وبحثا ووصفا وتحليلا وتفسيرا وتوظيفا، وهذا هو المسار الذي عرفه التفكير اللغوي والذي اتخذه الإنسان منذ الأزل نحو غاية واحدة وهي "محاولة فهم طبيعة اللغة"، وإثر ذلك ظهرت جهود ودراسات وبحوث حاولت – على اختلاف خلفياتها ومنطلقاتها وأدواتها وغاياتها – النظر في اللغة والسعي إلى كشفها وفحصها لمعرفة خصائصها وأبعادها من حيث النشأة والطور والتشكيل والاستعمال، برؤى وتصورات ونظريات مختلفة باختلاف الظروف والعوامل (الزمن والمكان) والموضوع والغاية والمنهج.

أفرز لنا هذا الأمر كله: ظهور تيارات واتجاهات ونظريات ومدارس وتخصصات متباينة كان موضوعها المشترك هو البحث اللغوي (أو اللغة بحد ذاتها)، هذا الأخير يشهد مسارا مضطربا ومتوترا وتراكميا من أجل تحديده وضبطه من حيث التسمية أو المصطلح، ومن حيث موضوعه الدقيق ومنهجه ومبادئه (ضوابطه) وما يدل على هذا المشهد: تعدد المصطلحات المستعملة للدلالة على هذا لمجال (مجال البحث اللغوي). ومن ذلك نذكر: فقه اللغة، علم العربية، علم النحو، علم اللغة، الفيلولوجيا، علم اللسان، الألسنية، اللسانيات.

**مصطلح فقه اللغة:**

- كثيرا ما تذكر الكلمة للدلالة على معنى علم الشريعة، "فقيل لكل عالم بالحلال والحرام فقيه" (مقاييس اللغة).

والفقيه: "العالم بأصول الشريعة وأحكامها، واستعمل فيمكن يقرأ القرآن ويعلمه".

- وهو لغة: "الفهم وفي مجالنا هذا يعني: فهم اللغة أو العلم بحقائقها أو الفطنة إلى أسرارها". **وعن مفهومه كدراسة لغوية (اصطلاحا):**

فهو: "حقل من حقول الدراسات اللغوية، فيعني لدى الدارسين قدمائهم ومحدثيهم البحث في ظواهر اللغة المختلفة ودراسة قوانينها وأسرار تطورها ونموها والوقوف على تاريخها ومراحل سيرها، ومحاولة وصفها والتعليل لما يمكن من أحكامها"

ويعرف أيضا بأنه علم يعنى "بدراسة قضايا اللغة من حيث أصواتها ومفرداتها وتراكيبها وفي خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وما يطرأ عليها من تغيرات وما ينشأ من لهجات وما يثار حول العربية من قضايا وما تواجهه من مشكلات". يمكن النظر إلى دلالة مصطلح "فقه اللغة" من حيث استعماله ونشأته من زاويتين (منظورين) وهما: دلالة (استعمال) قديما، ودلالة حديثة.

**فقه اللغة قديما:**

كان معروفا ومستعملا كدراسة وبحث لغوي لكن دون تحديد واضح للمصطلح (التسمية: فقه اللغة) بحيث "كان التأليف اللغوي عند العرب قديما مختلفا ومتداخلا، ولم يكن المصطلح معروفا لدى الدارسين العرب في طور نشأة الدراسات اللغوية، وإن كانوا في ذلك الطور عالجوا جوانب مهمة من موضوعات فقه اللغة، ووضعوا في ذلك رسائلهم وكتبهم ومصنفاتهم".

بدأ استعمال هذا اللفظ منذ القرن (05 ه) ويراد به الدراسة المتعمقة للغة اللسان كله.

فهو إذن فرع من علم اللسان يقتصر بالدراسة على لغة بعينها موضوعا ودراسة ومنهجا ونشأة، وهي دراسة محدودة الزمان والمكان تهتم بالنصوص القديمة.

أول من استعمل المصطلح للدلالة هو ابن فارس (الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها) خلال القرن الرابع الهجري (وكان معاصرا لـ: ابن جني). ثم استعمله الثعالبي ( ق 05ه) في كتابه فقه اللغة وهو عبارة عن معجم صغير لألفاظ اللغة.

وفي نفس الفترة – أيضا – ظهر كتاب لـ: "ابن سيدة" عنوانه: المخصص في فقه اللغة متضمنا موضوعات عدة في تخصص فقه اللغة.

**مصطلح فقه حديثا:**

اختلفت دلالة هذا المصطلح في العصر الحديث بين المحافظة على دلالته القديمة التي عرف بها عند ابن فارس والثعالبي وغيرهما، فجعله البعض دالا على دراسة لغوية تتناول ما "تناوله القدماء (ابن فارس والثعالبي وابن جني ...الخ) من موضوعات مع اختلاف في طريقة التناول ومنهجية البحث (منهج حديث).

مع اختصاص الدراسة باللغة العربية (فقه اللغة العربية) تفريقا له عن مصطلح "علم اللغة العام".

أما الفريق الآخر، فهم المستشرقون الذين استعملوا ولأول مرة هذا المصطلح للدلالة على منهج لغوي، حيث استخدموه كترجمة لمصطلح philologie رغم الاختلاف الكبير بينهما.

لكن رغم ذلك استمرت هذه الترجمة فأصبح مدلول عبارة "فقه اللغة" دال على علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الأوسع.

ويصف عبد الرحمان الحاج صالح هذه الترجمة بالمخالطة وبأنها: خطأ وقع فيه المترجمون، وقد يكون السبب تشابه في المنهج أو قد يكون ذلك نتيجة لاستئناسهم للمناسبة (التشابه) الصوتية بين المصطلحين (فقه اللغة philologie).

وأيضا التشابه الموجود بينهما من حيث: كلاهما يدرس اللغة كوسيلة وليس كغاية، وكلاهما يعد عنوانا للدراسة التقليدية للغة.

لكن الأصح مفهوميا: هما مختلفان تماما: ففقه اللغة مفهوم عربي محض.

أما مصطلح: فيلولوجيا Philologie: فهو مفهوم غربي، تمثل مرحلة من مراحل تطورهم الثقافي اللغوي، وهو مصطلح يشير إلى "دراسة لغة من لغات معينة من حيث قواعدها وتاريخ أدبها ونقد نصوصها، ولعل هذا أقرب المذاهب إلى دلالة المصطلح لدى العرب، ومنهم من وسع إطلاقه فشمل دراسة الحياة العقلية وثمارها العلمية في أمة ما أو في مجموعة أمم، وهو بهذا الإطلاق يقترب من علم التاريخ ومناهجه.

والفيلولوجيا: هي مرحلة من مراحل الدرس اللساني عند الغرب (ق19) حيث كان الاهتمام منصبا على الدراسة التاريخية والمقارنة، وذلك بجمع النصوص القديمة ونقدها نقدا تاريخيا والنظر فيها لاستخراج أوصاف اللغة التي كتبت بها هذه النصوص من جهة، ثم المقارنة بينها بعد ترتيبها زمانا ومكانا لإثبات مراحل التطور اللغوي من جهة أخرى. (عبد الرحمان حاج صالح)

وتتمثل الدراسات الفيلولوجيا في الدراسات الشارحة والناقدة للنصوص القديمة من حيث القاعدة ومعاني المفردات وما يتصل بذلك من شروح ونقد وإشارات تاريخية وجغرافيا. (تمام حسان، الأصول)

من خلال هذه التعريفات يتضح الاختلاف الكبير بين مصطلحي "فقه اللغة" الفيلولوجيا" منهجيا ومعرفيا، فمجال الفيلولوجيا متعدد ومختلف، فهو يرتبط بالدراسات التقليدية اللغوية الغربية، ويرتبط بالمجال الفلسفي والمنطقي وكذلك الأدبي أو الثقافي العام.

في حين يرتبط مصطلح فقه اللغة بالبيئة الثقافية العربية ومن وموضوعاته:

- القول في أصل اللغة والخلاف في ذلك.

- خصائص اللغة العربية وما تنطوي عليه من أسرار وجمال.

- معرفة سنن العرب في كلامهم وأساليبهم.

- علم الأصوات اللغوية – لهجات العرب واختلافها.

- بنية الكلمة العربية (الصرف).

- الجملة أو التركيب (النحو) – دلالة الألفاظ ومعانيها وتطورها وانحطاطها دلاليا.

- الاشتقاق بأنواعه – المشترك والمترادف والتضاد والنحت.

- التعريب وضوابطه – الإطراد والشذوذ.

- المعاجم العربية ومدارسها – القياس في كلام العرب.

- ما تواجهه العربية من عقبات ومشكلات، وما يحاك ضدها من مؤامرات.

- مواكبة العبية للجديد واستيعابها للمصطلحات الجديدة كالمصطلحات الطبية والصناعية وغيرها.

- جهود العلماء في هذا الباب في القديم والحديث.

- قضايا الدعوة إلى العالمية وترك الإعراب وإصلاح الخط العربي.

- العناية بالدراسات التي تقوم بها المجامع اللغوية وما يتمخض عنها من نتائج وقرارات.

ينظر: (الدراسات اللغوية 'عند العرب إلى نهاية ق 3ه + فقه اللغة مفهومه وموضوعاته وقضاياه، محمد، ص 22 – 23 – 24)

**بين علم اللغة وفقه اللغة ولسانيات:**

من جهة أخرى يلاحظ وجود خلط وتداخل بين "فقه اللغة" و"علم اللغة" عند الباحثين والدارسين على الرغم من البعد المفاهيمي بينهما حيث يقتصر الأول على الدراسة النوعية للغة العربية وهي دراسة قديمة كما أشرنا سابقا، في حين يدل المصطلح الثاني على الدراسات اللسانية الحديثة، ومناهجها المعاصرة عند الغرب، وحاليا يستخدم مصطلح علم اللغة كترجمة للمصطلح الأجنبي linguistique، وهي ترجمة يفضلها البعض ويعترض عليها الكثير من الباحثين، ومنهم "عبد الرحمان الحاج صالح" الذي يقدم مبرراته في رفضه لهذا المصطلح وتفضيله لمصطلح اللسانيات:

\* الاستعمال العلمي للمصطلح بالقياس للمصطلحات رياضيات، بصريات ... لسانيات.

\* لفظة "علم اللسان" تستعمل قديما وحديثا للدلالة على الدراسة العلمية (النظام التواصلي المتعارف عليه بين البشر).

\* الفرق بين لفظة (لسان) و(لغة).

\* ترجم كتاب إحصاء العلوم للفرابي باللغة الأجنبية وفيها استخدم مصطلح linguistique ترجمة لمصطلح علم اللسان (من طرف: جيراردو في القرن 12م)، وكانت كل موضوعات هذا العلم (حسب ما ورد في الكتاب "إحصاء العلوم") تعد اليوم من صميم البحث اللساني الحديث.

\* دلالة مصطلح "علم اللغة" على استعمال قديم وحديث لدى اللغويين مما يسبب الخلط واللبس (قديما استعملوا علم اللغة للدلالة على: علم متن اللغة، ويميزونه عن علم العربية الذي هو أعم منه)، يقول: ابن يعقوب في شرح التلخيص: "علم متن اللغة أي معرفة أوضاع المفردات اللغوية، وهذا العلم تعلق بذات اللفظ ومعناه".

"وكان يستعمل علم اللغة للدلالة على جمع الألفاظ وتبويبها وعمل المعاجم أو فما يتصل بشكل عام بدراسة المفردات وتصنيفها، وقيل فيه: "هو علم يبحث عن مدلولات جواهر المفردات وهيئاتها الجزئية التي وضعت... وموضوعه وجواهر المفردات وهيئاتها من حيث الدلالة على المعاني الجزئية".

ومن أجل هذا - اختصاص مصطلح علم اللغة بدراسة لغوية عند العرب قديما وتناولها لموضوعات جزئية من جهة واختلاف لفظة "اللسان" و"اللغة" دلاليا- يفضل استعمال مصطلح اللسانيات كترجمة لمصطلح linguistique الدال على الدراسة العلمية للسان البشري، وهي الدراسة التي ظهرت في العصر الحديث عند الغرب.